إخترنا للجندي



طرائف عسكرية

بقلم
السيد فرج

اخترنا للجندي

طرائف عسكرية

بقلم

السيد فرج

هل يضحك القادة ويبكون ، ويحسون بالحياة كما يحس بها الآخرون أم ترى تغلب عليهم طباع الدم والحديد فلا يكون للعواطف البشرية فى نفوسهم مكان ؟

لقد شاع أن الصفات الغالبة على العسكريين هى القسوة والعنف ، وأن الجندى يفكر بوحى السيف ويتكلم بلغة المدفع ، فإذا أحب فحب السيطرة والتملك ، وإذا حكم فحكم الغالب . . . والويل للمغلوب !

أما الحقيقة والتاريخ فيشهدان بأن الجندى الأصيل إنما ينطوى على قلب نبيل ، وأن هذا الوجه الذى لفحته أحداث الحرب إنما يخفى وراءه نفسا عالية وإنسانية فياضة وعواطف رقيقة .

وما الجندية إلا الانسانية فى أرقى درجاتها . . . أليست هى الجود بالنفس فى سبيل الغير ، والاقدام على الموت لاستبقاء الحياة للأهل والوطن ؟ ، وهل يصح فى الأذهان أن يكون الجندى الأصيل ، الذى يعمل لغيره ورأسه على كفه إلا أن يكون رجلا كبير النفس عظيم الروح ، لاتفتنه المغانم ، ولا يغلبه الطمع الدنيوى ؟

تعال معى إلى صفحات التاريخ أقدم لك أمثلة لا يحصيها عد ، فترى قادة أقوياء رشقاء . قادة ينبضون شجاعة وحكمة وشبابا وحبا ، قادة علماء وأدباء وطنيين مصلحين ، أبناء وآباء بررة ، سيوفهم تقطر دما ، وقلوبهم تفيض خيرا ورحمة .

لماذا بكى الاسكندر وضحك هانيبال ؟

كان الاسكندر المقدونى قائدا شابا وملكا على بلاده وهو فى ضحوة العمر ، واستطاع بشجاعته وكفاءته أن يدفع عن وطنه غائلة الأعداء المتربصين به الطامعين فيه ، ثم خرج والنصر فى ركابه يوطد عرشه ويؤمن مستقبل قومه حتى أصبح سيد الدنيا . . . فلم يغيره هذا الملك العظيم ولم يفسده هذا المجد الذى لم يحلم بمثله حالم .

أنظر إليه فى أوج مجده وقمة شهرته وفورة شبابه ! وقد هزم دارا ملك الفرس هزيمة نهائية ساحقة ، وراح ضباطه وجنوده يقتسمون الغنائم والأسلاب دون أن يأخذ شيئا لنفسه ، فلما أبدى أحدهم عجبه لمسلكه قال الاسكندر :

لقد استبقيت لنفسى كنزا نفيسا . . . هو الأمل .

لما جىء له بزوجة دارا — وكانت أجمل نساء عصرها — رفض أن تدخل خيمته وراح يبكى ، ثم أمر بأن تعود إلى قصرها معززة مكرمة .

وهكذا انتصرت البطولة الحقة فلم يسكرها خمر النصر ولم تهزمها شهوات الشباب .

ولم يكن الاسكندر قائدا همجيا مفتونا بالغزو مدفوعا بحب الغلبة والسيطرة ، وإنما كان ملكا مهذبا مصقولا أدبته أمه أوليمبيا وأبوه فيليب

فأحسنا تأديبه ثم تلقاه فيلسوف عصره أرسطو فجعله محباً للعلم والأدب والفلسفة ، فكان يقول :

لو لم أكن الاسكندر ، لوددت أن أكون ديجونيس .

كان الاسكندر يبنى المدن وينشر العلم ويذيع المدنية أنى أسال دم الفتوح . . .

وعندما خلص مصر من نير الفرس أعاد لها مكانتها الدينية واستقدم المهندس اليونانى (دينوقراط) فبنى مدينة الاسكندرية عروس البحر ، وأثبت تاريخ عشرين قرنا من الزمان بعد نظره فى اختيار هذه المدينة التاريخية التى خلدت اسمه .

فالاسكندر لم يكن قائد جيش فحسب ، وإنما كان — كما وصفه الدكتور طه حسين — قائد فكر قبل كل شىء وفوق كل شىء ، كان يضرب بسيفه ويرى بعقله ويعمل بانسانيته ، فهو قائد لم ترق إلى نفسه الشهوات حتى وهو فى أوج قوته وشهرته وانتصاره ، وهو خير نموذج لعظمة الجندية وخير معبر عن روحها وتقاليدها .

* * *

وهذا هانيبال القائد الافريقى ، الذى لم يتعلم فى مدرسة ، ولم يعرف الحرب على الورق والخرائط ، وإنما عاش فى الحرب بين القاليع والحراب وشب فى أحضانها يرى التصارع والتبارى ويشهد مصرع أبيه ، ثم يحملون له رأس أخيه . . فيستمر فى طريقه لأداء واجبه وتخليص بلاده من نير الغاصب المستبد ويقول : « انى لا أنظر خلفى مهما يحدث » .

وقد انتصر هانيبال فى أعظم وقائع التاريخ فلم يفسده النصر ولم تظهر فى حياته الشهوات والملذات ، ثم انهزم هانيبال فلم تغيره الهزيمة ولم تذهب بشجاعته وصفاته العسكرية .

أنظر إليه وقد استدعاه القائد المنتصر (سيبيو) فسأله :

— من أعظم جندى فى العالم ؟

فأجاب هانيبال : الاسكندر المقدونى :

فسأله طامعاً : ومن الذى يليه ؟

قال : أنا ! !

هكذا الجندى الشجاع حتى فى حضرة هازمه .

* * *

وفى تاريخ هانيبال دروس أنفع وأوقع من الدروس العديدة التى يستذكرونها إلى اليوم فى المعاهد الحربية عن خططه فى (كانا) فان هانيبال كان يحارب ليدفع عن وطنه ظلم روما فعبر البحر والجبل وخاض السهل والوعر ليهزم الرومان فى عقر دارهم . . وإذا برجال الحكم فى بلدة قرطاجة يكيدون له ويمتنعون عن مساعدته ويسخرون ويضحكون ملء أشداقهم كلما تورط فى مشقة أو بعث إليهم بطلب لامداده .

كان هانيبال يجاهد ويشقى ويبكى . وهم يضحكون !

فلما دارت الدائرة وانهزمت جيوشهم وديست أراضيهم وضاعت مراكزهم بكى الحكام . وضحك هانيبال !

أثبتوا .... او موتوا

قال القائد لجنوده : اثبتوا أو موتوا . . .

وسجل التاريخ .

قائد يأمر جنوده بالاندفاع فى حومة للموت !

وجنود يلبون النداء ، وهم يعلمون أنه . . للموت !

فعل هذا جنود أسبرطة حين وطدوا العزم على سد للمر الذى اعتزمت القوات الآسيوية اجتيازه لكى تغزو اليونان . وكانوا يعلمون سلفا أنهم لا قبل لهم بصد هذه الجحافل العاتية التى أقبلت والموت يتقدم ركابها ، ومع هذا فقد استبسل الثلثمائة اسبرطى . . ومر الغزاة على جثثهم !

وفعل مثله جنود الإسلام فكانوا يقبلون على الموت لكى توهب لهم الحياة ، وكان لهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة .

قال الإمام على كرم الله وجهه « إننا كنا إذا حمى البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه » .

وقد كان المجاهدون يفضلون للموت فى الحرب كقول عبد الله بن الزبير :

« إنا والله لا نموت حتفا ولكن قعصا بأطراف الرماح وموتا تحت ظلال السيوف » .

وفى الحرب النابليونية كان مارد الحرب يشير بيده ، أو بطرف عينه فيندفع جنود فرنسا إلى وادى الموت وهم يهتفون : يحيا الإمبراطور .

وكان ولنجتون يشهد الموت وهو يحصد جنوده وجنود عدوه فى الحلقة الأخيرة من معركة « ووترلو » فيصدر الأمر اليومى :

« القتال إلى آخر رجل منا » .

وفى الحرب العظمى الأولى كان لودندورف يرى بعينيه الخاتمة المروعة لهزيمة ألمانيا ، فلما سئل عن رأيه فى الموقف كان جوابه النهائى :

« القتال إلى النهاية . . إلى الموت »

وفى التاريخ أمثلة عدة لمعارك كبرى أو صغرى خاضها الجنود ، وهم يعلمون أنهم ملاقو الموت .. فلم يترددوا ، بل اندفعوا وكأنهم يفرون إليه !

ترى ما الذى يدفع الجندى إلى الموت ؟

ما الذى يجعله يخاطر بحياته بكل شجاعة ؟

ليس هناك كائن من كان يحب الموت ، فما الذى يدفع الجندى إلى لقاء الموت ؟

هل هو يأمل فى المجد والغنم ، فيكون اقدامه نوعا من المغامرة ، أو المقامرة : فإذا نجحت لقى نصيبه من غنائم الميدان وأسلاب المعركة إلى جانب نصيبه من الشهرة والفخار فيتحدث عنه الناس — كما كان نابليون

يصور لجنوده — وإذا سار فى الطريق أشار إليه المارة وقال قائلهم : لقد كان من جنود الجيش الكبير .

هل هو يتفانى فى الإخلاص لقائده ، أو يكون قد تأثر بما أحدثه فيه قائده من إقدام وبسالة .. فيصبح رهن إشارته ، ولو أشار إلى حومة الموت ؟

هل يكر ويستبسل لأنه يحارب فى سبيل قضية عادلة ، يؤمن بها ويصر على نصرتها ، ولو دفع حياته عربونا لها ؟

هل هو يسير بحكم التقاليد والنظام فيتقدم مع المتقدم ويستبسل مع المستبسلين كما تعود فى العظيم واليسير من نظم الجندية وضبطها وربطها ؟

هل هو يحارب إلى حد التضحية لأنه يعلم سلفا بعظم الأجر والثواب ، وقد قال تعالى : « ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما » ، « يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله » .

* * *

لقد بحث هذه الظاهرة كثيرون من العلماء والقادة ، وذهب كل من هؤلاء مذهبا فى الدوافع التى أوردناها .

ومن رأى المارشال ويفل أن « المجد والغنم » لم يعودا يصادفان هوى من قلب الجندى الحديث .. والواقع أنه لا يوجد اليوم الكثير من المجد والغنم !

وهو يقول : إن الجندى لا يهرب لأنه يحارب فى سبيل قضية عادلة ولا يحجم لان القضية غير عادلة ، ولكنه يتقدم بروح الجماعة المندفعة ، وبما بثه فيه قائده من حرارة وحماسة .

ويقول ويفل : إن « التقاليدوالنظام » هى الأصل الحقيقى للاستبسال والتضحية فإن للحياة العسكرية طابعها المميز وروحها الخاصة ، وهو ما يطلق على مجموعه كلمة « الضبط والربط » فيصبح العمل غريزيا ولو انتهى إلى الموت .

وقد أجمع الكتاب الذين نشروا آراءهم فى الموضوعات النفسانية أن روح الجندية هى التى تسيطر على الجندى وتجعله يتقبل المشقة ويستطيب العناء ويقبل على الموت .

رب هزيمة خير من انتصار

من الظواهر التى تستوقف النظر فى تاريخ كبار القادة أن النصر وحده لم يكن الوساطة إلى الخلود ، وأن الهزيمة التى منى بها بعض القادة لم تحل دون فوزهم بالشهرة المدوية ووصفهم بالعبقرية وتخليدهم وذيوع صيتهم برغم مرور عشرات ومئات السنين .

وقد حدث أن دخل المارشال ويفل يوما إلى قاعة الدرس فى إحدى الجامعات العسكرية وفى ذهنه فكرة معينة ، كتب على السبورة كلمة « سيبيو » وانتظر قليلا ثم سأل الطلبة عن مرادها فلم يعرف أحد . . . ثم كتب كلمة أخرى « هانيبال » فعرفه الجميع انه القائد القرطاجنى الأشهر بطل معركة « كانا » .

وتحققت فكرة ويفل التى أراد أن يبثها فى طلبته بطريقة مبتكرة إذ أوضح لهم أن انتصار « سيبيو » الرومانى على هانيبال القرطاجنى لم يقدمه عليه فى قائمة البطولة ، وأن هزيمة « هانيبال » لم تحل دون وضعه فى الصف الأول بين عباقرة العسكريين .

وكان هذا أيضاً نصيب نابليون بونابرت . وهو أشهر عبقرية عسكرية فقد انتصر عليه ولنجتون فى معركة « ووترلو » التى أسدل بعدها الستار

على الحروب النابليونية . . . وإن كان نابليون قد استمر معبود الجماهير إلى اليوم على حين لم يزل ولنجتون سوى مقعد غيرملحوظ فى الصف الثانى .

ولم يكن القادة الذين أحرزوا النصر فى الحرب الأهلية الأمريكية أفضل من الجنرال « روبرت لى » الذى يعتبر من أعظم قادة تلك الحرب من الجانبين بغير استثناء .

وفى الحرب العالمية الثانية وعلى مقربة من ديارنا وقف خصمان عنيدان يتنازعان كأس النصر فى معركة كبرى ، كان روميل أحد الرجلين ومونتجمرى ثانيهما وكانت المعركة « العلمين » احدى المعارك الفاصلة التى يتوقف عليها مصير الحرب .

أما الظروف التى كان عليها الخصمان فكانت جد مختلفة لا تترك مجالا لمجرد المقارنة ، ففى ناحية كانت قوات الحلفاء على تفوق كبير فى العدد والمعدات وعلى مقربة من قاعدة ضخمة مأمونة للمواصلات فضلا عن تفوق جوى بلغ أشده ! وفى الناحية الأخرى كان فيلق أفريقيا الألمانى يفتقر إلى الامداد من الرجال والأسلحة والوقود ، ويبتعد عن قاعدة تموينه مئات الأميـــال ، عبر مواصلات مهددة ومعركة جوية خاسرة وحلفـاء مسلوبى الهمة ؟ !

وحاول روميل أن يقنع القيادة العليا الألمانية بتحويل بعض الاهتمام للميدان الأفريقى فلم ينجح مسعاه لأن معركة ستالينجراد كانت تستحوذ على كل الاهتمام وتستأثر بجميع الامدادات والممتلـكات .

وجاء تشرشل إلى مونتجمرى ومعه بشرى الامدادات السخية من أحدث الطائرات والدبابات والمدافع الأمريكية ، أما روميل فجاءه اخطار من هتلر يقول فيه :

« فى مثل هذا الموقف الذى وجدت نفسك فيه لا يمكن أن يكون هناك أى تفكير إلا الصمود وفى دفع كل سلاح ورجل إلى المعركة . . . وليس أمامك إلا أن تبصر قواتك بشىء واحد : « النصر أو الموت » » .

وعرف الخبراء بتقدير الموقف نتيجة معركة العلمين قبل حدوثها ، فقد كانت معركة ذات جانب واحد ، وكان المنتظر أن تكون المعركة واحدة ونهائية . . . ولم يكن فى وسع أى قائد فى الوجود منع الهزيمة .

وسجل روميل تلك الفترة الحالكة فى احدى رسائله إلى زوجته فقال :

«إن المعركة تشتد وطأتها علينا ، ولقد دفعتنا حشود العدو عن مواقعنا انني أبذل جهدا بالغاً لانقاذ الجيش . . . لقد قضيت الليل مستلقيا مفتوح العينين أعمل فكرى فى طريقة لانقاذ قواتى . . . إننا نواجه أياماً فى غاية السوء ، بل أسوأ ما يمكن أن يمر بانسان » .

وجاءت المعركة مخيبة للظنون ، فقد أحرز الحلفاء نصرا حربيا ولكن القوات الألمانية لم تقهر ولم تستسلم واستطاع قائدها العبقرى أن يمنع الدمار ويتفادى الكارثة ويمرق بجيشه فى الوقت المناسب وبأقل خسائر ممكنة ، وفى مثل هذا الموقف السيء تبرز فطانة القائد وتتضح عبقريته ، ولهذا خرج القائد المهزوم من بوتقة الشدة أكثر صفاء وأشد لمعانا فاحتضنه التاريخ ووضعه فى الصف الأول بين عباقرة الحرب فى كل زمان :

وقد سجل له الأنصار والخصوم أنه كان قائدا فوق مستوى القادة ووصفه المارشال ويفل بأنه ظاهرة غير عادية وفلتة نادرة فى التاريخ العسكرى .

الويل للمغلوب

أفرجت الدول الكبرى عن المعتقلين من القادة الألمان الذين نفذت فيهم أحكام محكمة نورمبرج بتهمة تعكير السلم والإخلال بالمعاهدات ، وذلك في أعقاب الحرب العالمية الثانية .

وكانت هذه هى المرة الأولى التى تظفر فيها الدول برءوس خصومها في الحرب فقضى على بعضهم بالاعدام وعلى الباقين بالسجن فترات متفاوتة .

وقديماً كان المقاتل البدوى يصفح عن خصمه بعد انتهاء القتال ، على نحو مايجرى اليوم فى مباريات الرياضة البدنية من مصافحة بين الغالب والمغلوب .

وقد كان الصفح من شيم كبار العسكريين حتى أن تيمورلنك — برغم قسوته ووحشيته — لم ينكل بخصمه بايزيد القائد التركى ، بل أكرم وفادته وأبقاه لديه معززا مكرما حتى إذا قضى نحبه ، لم يضن عليه بمكان كريم فى بطن الثرى فأرسله إلى بلاده ، ليدفن إلى جانب آبائه وأجداده .

وحينما انتصر الاسكندر الأكبر على الملك بيدوس فى غزوته الهند ، لم يشأ أن يقتله أو يسيء معاملته بل تلطف معه وسأله عما يريد فقال : أريد أن تعاملنى معاملة الملوك ، وأجابه الاسكندر إلى ما أراد .

وجاء نابليون فأشعل نيران الحروب فى أوربا ثم غلب على أمره ووقع فى قبضة أعدائه وبعد بحث طويل فيما يصح أن يعاقب به تقرر تعيينه ملكا على جزيرة البا ، فلما فر من مملكته الصغيرة وهزم فى معركته الأخيرة استقر رأى خصومه على الاستراحة منه إلى الأبد ... وذلك بالنفى والابعاد ، وكان أن أمضى النسر الفرنسى بقية حياته أسيراً فى جزيرة القديسة هيلانة .

وفى الحرب العالمية الأولى هزمت ألمانيا فالتجأ القيصر إلى هولندا فآوته وظل امبراطورا فى المنفى !

أما فى الحرب العالمية الأخيرة فقد فطن الحلفاء إلى هذا المخرج وأصدروا قراراً بمنع حماية اللاجئين والمرة الأولى لم يعد للمغلوب باب مفتوح ينجو به من نهايته الاسيفة وإن كان الاعدام فى عرف العسكريين أفضل نهاية وأشرف ختاما من ذل الانتصار ومرارة الأسر .

وقد جاء « شوقى » بهذا المعنى على لسان القائد الرومانى انطونيو بعد هزيمته المشهورة فى مصر إذ قال مخاطباً معاونه الوفى اوروس :

فمالت بنا الدنيا فصرنا بموضع
شديد على الأبطال بالذل مشعر
فكيف مقامى يا أوروس على الأذى
وصبرى على العيش الذليل المكدر
أوروس أتم نفهم : هو الذل فاشفنى
بضربة سيف أو بطعنة خنجر

أشجع الشجعان !

لاغرو أن تكون الشجاعة فى مقدمة صفات العسكريين فهى المعين الذى يزود الجندى بروح الكفاح والقوة الكامنة التى تدفع به لخوض غمار الأهوال وانتزاع النصر من مواطن الشدة والبأس .

وقد حفل تاريخ الحروب بوقائع وأحداث كان للشجاعة فيها النصيب الأوفى قبل أى سلاح آخر من أسلحة القتال ، وكثيراً ما كان لاقدام جماعة من الجند وربما لإقدام جندى واحد ما عجل بتصير المعركة أو نقل النصر من عسكر إلى عسكر .

وإن فى تاريخ كل أمة صفحات مجد وفخار ، سطرتها سيوف الرجال الشجعان الذين خاضوا غمار الحروب والأهوال بقلوب لا يعرف الفزع أو الجزع إليها سبيلا وأقدموا على معمعان الموت لا يحسبون له حساباً فمنهم من وصل إلى غايته ومنهم من قضى فى سبيلها وهم فى الحالين يتركون لخلفائهم قبساً من النور يوقد العزم ويلهب الشعور .

ومن صور الشجاعة التى لا تغيب ذكراها صورة رجال اسبرطة الثلثمائة الذين قضوا فى معركة وحيدة بعد أن رفضوا التراجع عن مراكزهم فمر أعداؤهم على جثثهم فصارت شجاعة أهل اسبرطة مثلا يروى .

كما أن من أعمال الأفراد ما خلد أثره وذاع ذكره وصار تراثاً يتداوله

الخلف عن السلف فما تقلب صفحات الماضى حتى تجد أمثلة ممتازة لما قام به الرجال البسلاء من أعمال البطولة العظيمة والشجاعة المتناهية .

وقد قال نابليون : « إن من أعمال الشجاعة ما يفوق الخيال »

وقد روى عن الإسكندر المقدونى أنه حين أعجزته الوسائل عن غزو أحد الحصون صعد إلى حائط الحصن وألقى بنفسه إلى الداخل فتبعه جنوده كالشياطين متأثرين بشجاعته مقدمين على ما أقدم عليه من مواجهة الخطر الداهم فلما وصلوا إلى مكانه ألفوه مضرجاً بدمائه وقد أصابته سهام ورماح.

وكان الجنرال ديزيه يقود فيلقا فى معركة مارنجو الشهيرة بين فرنسا والنمسا وقد خسر الفرنسيون الجولة الأولى . فما كان من ديزيه إلا أن تقدم من قائده بونابرت قائلا : « سيدى الجنرال . . . بعد ثلاث ساعات سوف يكون العدو فى قبضتنا » ثم لوى عنان جواده واندفع بفيلقه ليخترق الصفوف ويقتحم النيران . ومضى فى مقدمة رجاله والموت يترصده من كل جانب حتى نجح هجومه الجارح بفضل شجاعته وقد مزقت جسده رصاصات العدو فلفظ أنفاسه الأخيرة وهو يردد كلمته المشهورة :

« إنى أموت سعيداً لأنى أموت فى سبيل الوطن » .

وقد حدث فى إحدى المعارك بين الجيشين الفرنسى والألمانى عام ١٧٦٠ أن تسلل إلى مواقع الجيش الفرنسى جماعة من الألمان فى ثياب الفرنسيين فكانوا يقتلون ويدمرون دون أن يفطن إليهم أحد فوقع فى أسرهم الشيفاليه داسا فحذروه من الصياح حتى لا ينكشف أمرهم وإلا دفع حياته ثمناً لصيحته فما كان من الجندى الشجاع إلا أن صاح بأعلى صوته « إنهم

الألمان . . أحضروا » وسقط يتلوى ودفع حياته ثمناً لشجاعته . جاد بها فداء عشرات من أبناء جلدته .

وكان هانيبال بطل قرطاجنة جنيديا باسلا فلا تجد قائمة لعظماء العسكريين إلا وهو فى مقدمتها وما زالت معركته الشهيرة « كانا » مثلا ينسج على منواله واضعو الخطط الحديثة وقد كان هذا الجندى العظيم لا يعرف التراجع أو التسليم مهما كانت الظروف وكان شعاره « إننى لا أنظر إلى الخلف مهما يحدث » .

وقد هزم هانيبال فى موقعة زاما فسأله القائد المنتصر « سيبيو » عن رأيه فى أعظم جندى فى التاريخ فأجاب هانيبال : الإسكندر الأكبر . فسأله : ومن الثانى ؟

فقال بكل شجاعة أنا . . . !

وذلك على الرغم من أنه فى حضرة القائد الذى هزمه منذ ساعات .

أما جان دارك الفتاة القروية الساذجة فقد رزقت قلباً نادراً ممتلئاً بالشجاعة والإيمان فتقدمت فى مواطن البأس والشدة دون أن يروعها المصير الذى كانت مندفعة إليه ولم تكن قد امتطت من قبل جواداً أو امتشقت سيفاً ولكنها تقدمت بإيمانها وشجاعتها لتقود جيش فرنسا فى أكبر معركة ضد الاحتلال البريطانى .

ولما وقعت جان فى أيدى الانجليز سمعت الحكم بحرقها دون أن تحرك ساكنا وتلقت نهايتها الفظيعة وهى رابطة الجأش وأخذت تهبط درك الجحيم حتى غابت فى غياهب النيران . . . وانفجر الحاضرون باكين

منتحبين لهذا المصير المحزن والمأساة الرهيبة ، وصاح صائح منهم : « ياله من إجرام ، لقد أحرقنا قديسة » .

وإذ ما ذكرت الشجاعة فلابد أن يذكر كامبرون قائد الحرس الامبراطورى فى عهد نابليون ، ذلك الجندى الفذ الذى وقف فى ميدان واترلو والنصر يميل شيئا فشيئا إلى جانب بريطانيا حتى اختفت البارقة الأخيرة من الأمل . . . فتقدم كامبرون من نابليون ونظر إليه نظرة طويلة فيها كل معانى الولاء والشجاعة فلم يتكلم الامبراطور ، ولكنه أشار بطرف سبابته إلى الإنجليز . . . فاندفع كامبرون على رأس الحرس نحو وادى الموت وهو يتمتم :

« إن الحرس يموت ولا يستسلم »

وقد اشتهر دوق ولنجتون بشجاعة نادرة حتى لقب بالدوق الحديدى ، وكان هذا الجندى الكبير — الذى لم يخسر معركة — يقف بين جنوده فى خط النار ، وكانت بسالته مضرب الأمثال فلما كان فى معركة وترلو تجمع حوله الضباط محافظة على حياته وهو مستهدف للخطر لا يعتصم بمخبأ ولا يتراجع عن معترك النيران ورجاه أحدهم أن ينقذ نفسه إنقاذا للنصر البريطانى فقال ولنجتون :

« لا ضرورة لحياتى بعد اليوم فقد كسبت المعركة »

وكان المارشال لودندورف قائدا باسلا أسد القلب وكان اسمه وحده بشيرا بالنصر وكان الجنود الألمان يندفعون إلى المراكز الخطيرة اقتداء بما يرونه من شجاعة قائدهم وعدم مبالاته بالخطر فكان انتصار الألمان على

الروس فى وقعة تاتنبرج هو انتصار للشجاعة والإقدام . وقد سئل لودندورف عن رأيه فى الموقف الحربى بعد أن وضحت هزيمة ألمانيا فقال :

« القتال إلى النهاية . . . إلى الموت »

وكانت الشجاعة من صفات العرب الفطرية ، لحفلت سيرهم بأنباء البطولة وفعال البسالة فإذا ماراجع شبابنا صفحات ذلك الماضى العظيم وجدوا صوراً رائعة وأمثلة خالدة يندر نظيرها فى أيامنا هذه .

وفى مقدمة الجديرين بالذكر على بن أبى طالب وقد كان شجاعا لا ترهبه الأحداث مقداما لا يتأخر عن الصف الأول وقد نوشد فى احدى المعارك أن يحمى من الأعداء وقد تربصوا به الدوائر فقال على :

« أبالموت تخوفوننى ! فو الله ما أبالى أسقطت على الموت أم سقط الموت على »

وقيل لعلى إن درعك لاظهر لها فقال : « اذا استمكن عدوى من ظهرى فلا أبقى . . . »

كذلك كان خالد بن الوليد يتسلح أول ما يتسلح بشجاعته فلا يقنع بإدارة دفة القتال أو توجيه الرجال وإنما كان محاربا فى مقدمة الصفوف فلما طلبه قائد الروم لمناجزته — حقنا لدماء الآخرين — وافق على الفور واشتبك معه فى قتال رهيب حتى قتله . . . وقد عرف عن خالد أنه مات حتف أنفه ولم يكن فى بدنه موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة .

هكذا كان العرب . . .

وهكذا نريد أن يكون الخلف كالسلف

القائد المقدس

« إنى أضعه فى القائمة قبل نابليون
بونابرت »

مارشال ويفل

القائد المقدس

إن مكانة « روبرت لى » لا ترتفع إليها مكانة عظيم آخر من من الأمريكيين ، فهو شخص مقدس على مر الزمن فى جنوب أمريكا ، أى فى موطنه الأصلى ، أما فى الشمال فيعدونه أحد الأمريكيين العظام ، وفى إنجلترا يبهر اسمه الخلاب طلاب التاريخ العسكرى . . والغريب أن الجنرال « لى » لم يقم بفتوح رائعة ، ولم يحرز انتصارات باهرة ، وإنما كان بطل قضية محكوم عليها بالخسران

وتنظر قائمة أعظم قواد العالم ، كما رضعها ويفل ، فتجد بين الأسماء الأولى « روبرت لى » — قبل اسم نابليون — كما تجده فى قائمة ليدل هارت وغيره من المؤرخين والقواد الذين تولوا بحث أسرار العظمة العسكرية والقيادة الفذة .

ولعل أعظم ظاهرة فى بطولة « لى » أن ولاء جنوده وتعلقهم به لم يكن له مثيل . وعلى الرغم مما ذكره المؤرخون عن ولاء الفرنسيين لقائدهم العبقرى بونابرت فلن ننسى أنهم حاربوه حين مالت شمسه إلى المغيب وأطلقوا نيرانهم على صفيه المارشال ناى « أشجع الشجعان » . . ، أما « روبرت لى » فكان معبود جنوده الذين يفتدونه بنفوسهم عن إدراك وعرفان بالجميل ، كان بينهم قائدهم فى أشد ساعات المحنة ، واستطاع رغم سوء الظروف المحيطة به من كل جانب أن يجنبهم سوء المصير ، وأن

يخرج بهم من مأزق وأن يذيقهم من كأس النصر بعد جرعات الهزيمة .

كانت المعركة القديمة تعتمد أكثر ما تعتمد على روح القائد وكفاءته وحنكته فلو أن المقادير لم تهب أهل الجنوب فى أمريكا قائدهم هذا الحصيف « لى » لما استطاع أحد غيره أن ينهض بالجيش القليل البسيط فى مقدراته ، فيواجه به جيشاً يفوقه عدداً وعدة ، يهزمه مرة ، ويتراجع مرة ويرسم خططا حربية يدرسونها اليوم فى الجامعات العسكرية بعد قرن من الزمان .

إن عظمة القائد لا تعرف أثناء انتصاره فحسب ، فقد يفوز قائد عديم الخبرة لأن ظروف بلاده وأحوال عدوه قد جعلت النصر فى ركابه بغير مجهود ، وقد ساعدت المقادير « سيبيو » ولكن اسم سيبيو غير مشهور أما هانيبال فسيبقى فى الخالدين . . كذلك انتصر ولنجتون على بونابرت أشهر عبقرية عسكرية — فلم يقل أحد إن ولنجتون أفضل من بونابرت ، ولا أن مونتجمرى أحسن من روميل ، بل الحكم الحقيق هو الذى يصدر بعد مراجعة الظروف ودراسة الموقف والحالات التى جرت فيها المعركة .

والحق أن أعظم معركة خاض غمارها « لى » هى معركة « أبو ماتوكس » التى هزم فيها أمام الجنرال جرانت ، ولهذا حكم التاريخ « لى » بالبطولة وهو خارج من الهزيمة ، وأصطلحوا على وضعه بين عظماء العسكريين من غير أن ينتصر فى معركته الأخيرة » .

ولد الجنرال « لى » فى يناير ١٩٠٧ فى ستاتفورد بولاية فرجينيا

واشتغل مهندسا بعد دراسته فى مدارس الـكسندريا ، ثم ويست بوينت الأكاديمية الحربية والتحق بالجيش فظهرت كفاءته العسكرية ، وأخذ يشق طريقه قدماً فاختير أستاذا بالمدرسة الحربية ثم قاد فرقة الخيالة فى تكساس .

وظهرت أصالة الجندى ومدى تشبعه بالروح العسكرية الوطنية وبعده عن المظاهر حين دعى لقيادة قوات الولايات المتحدة . ولـكنه فضل أن يبقى جندى فرجينيا الأول ، بين جنوده ، ليحمى هذه الرقعة من الوطن التى شب عليها وتعهد لها أن يحمى ذمارها .

أجمع المؤرخون العسكريون على أن «لى» كان رجلا وضلافكان إمام المدرسة التى ترى أن خلق الرجل العسكرى هو أساس عظمته . وأنه لا نجاح لقائد لايستند إلى مبادى الشرف والـكرامة .

فـكان « لى » فى الحرب جنديا بسيطا يعيش كأحد جنوده بلا ترف ولا إسراف ، وكانوا فى وطيس المعركة يلتفون حوله لحمايته ويسحبونه إلى الخلف رغماً عنه ، وهو رابط الجأش ، غير مبال بما يتعرض له من خطر ونار . . ولم يكن ينام فى حجرة أنيقة ، وإنما فى خيمة بسيطة بها كرسى ولوحة ذات أقلام عليها طبق وفنجان . وسكين وشوكة فى بعض الأحيان .

وكان « روبرت لى » يتلقى تبعات الحرب بصدر رحب . ولا يخشى أية مسئولية مهما بعدت عن نطاق دائرته ، كان يوزع النصر على ضباطه وجنوده على حين يجمع فى رأسه ويحمل على كتفيه مسئوليات غيره . ولايترك لنفسه أى قدر من الفخر والنصر .

وقد عرف جنوده أن قائدهم هو صديقهم الأول ، ولكن احترامهم له بلغ نهاية التقدير ، فلما حلت بهم الهزيمة فى إحدى المعارك خيم البؤس عليهم ، وفجأة طلع عليهم « روبرت لى » فلم يبق جندى على حاله ، بل قفزوا جميعاً من فرحهم بلقائه وكانوا يهتفون له ويتصايحون ، وهم أنصاف عراة ، بين جوعانين ومهزومين !

وعلى الرغم من أن أهل الجنوب كانوا يحبون الحرية الحمراء إلا أن قائدهم « روبرت لى » كان رجلا طيبا أمينا بسيطا ، وبهذه الصفات كسب قلوب رجاله وكان يبدو دائما رجلا نظيفا أرستقراطيا ، ولكن كان جنتلمانا مثاليا .

لم يكن « روبرت لى » قائداً مدعياً وإنما كان جنديا بسيطا ، وهذا سر عظمته وكان ضد الرق مثل واشنطون وجفرسون .

وقد أمضى إثنين وثلاثين عاما فى الجندية ولم يفكر طوالها فى الجاه والمنصب ، ولم يفكر فى النفوذ والحكم ، فقد ظل من المؤمنين بأن للجندى ميدانا وللسياسى ميداناً آخر ، فقد عرضت عليه رياسة جيش الولايات المتحدة ولكن آثر قيادة الجنوبيين ! فهو رجل لا يبحث عن الفوائد الشخصية ولكن عن « الواجبات » فاختار أن يحارب لحماية فرجينيا ، وقد كان والده يقول : فرجينيا مملكتنا ، وكان هذا أيضا هو مبدأ « روبرت لى »

أما بعد ، فهناك حلم طاف طويلا بأذهان الأمريكيين ، ولكنه لم يتحقق . . إنك تسمع إلى اليوم من يقول لك :

« أى مكانة كانت تحصل عليها أمريكا لو كان لنكولن رئيسها ، وروبرت لى قائد جيشها » ! ؟

القتال إلى النهاية

.... إلى الموت

يتقدم الجندى إلى معمعان الحرب ، وقد وضع سلاحه فى يده وحياته فى يد القدر ، وينتهى به المطاف إلى هزيمة أو نصر ، وإلى موت أو أسر وهى نهايات تعاقب عليها المحاربون كبارا وصغارا من قديم الأزل .. اللهم إلا نهاية أخرى بغيضة تعافها النفوس الكبيرة وتبرأ منها العسكرية المستنيرة ألا وهى : الهرب من الحرب .

وقد حمل أصحاب الرأى على هذا الداء ، الفرار ، وعالجه الاخصائيون بنشر مبادىء الجهاد الوطنية وبث روح الأقدام والتضحية ، وأجمعت الأديان على استنكاره ، وجاء فى القرآن الكريم :

« يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » .

وقد وقع كثيرون من رجال الجندية فى مآزق شديدة الحرج ، وتأرجحت أمام أعينهم الحياة فى لباس الذل ، أو للموت مع الحرية ، ففضلوا الموت أحرارا على الأسر أو الفرار ، وقال قائلهم : « بيدى لا بيد عمرو »

كما فعل أنطنيوس اليونانى وسامسنوف الروسى وما كنج جونس الانجليزى وجورج الألمانى .

وفى أدب العرب قصص شائقة وأشعار رائعة فى ذم الخوف والجبن والهرب والفرار ، ولعل فيما نورده للمتنبى غنى عن الإطالة :

كذا يترك الأعداء من يكره القنا ويقفل من كانت هزيمته رعبا
أرى كلنا يبغى الحياة بسعيه حريصا عليها مستهاما بها حبا
فحب الجبان النفس أورثه التقى وحب الشجاع النفس أورده الحربا

وقد حارب طارق بن زياد مشكلة الخوف وحاول رفع معنويات جنوده بوضعهم أمام الأمر الواقع الذى لا مفر منه ، فأحرق الجسور خلفه وقال قولته المشهورة « إن البحر وراءكم والعدو أمامكم . . »

ومما يروى عن الجنرال ولنجتون القائد البريطانى المشهور فى التاريخ باسم الدوق الحديدى أنه كان يقف فى خط النار بين ضباطه وجنوده والخطر محدق به من كل جانب ، فرجاه ضباطه أن يتراجع عن منطقة الخطر فلم يلتفت لنصيحتهم ، ولما سأله أحد ضباطه عن الأمر اليومى .

قال :

« القتال إلى آخر طلقة » .

ولما مرت رصاصة بالقرب منه وكادت تودى به احتج عليه ضباطه وحاولوا إبعاده ، فقال : لا ضرورة لحياتى بعد اليوم . . . لقد كسبت المعركة !

واليوم تعنى الجهات المسئولة فى الجيوش الكبرى بعلاج هذه النقيصة

الشائنة ورجال علم النفس يذهبون فى علاجها مذاهب شتى ولا يوجد معهد عسكرى لا يعنى بدراسة الطبائع البشرية والأخلاق والسيكولوجية ومحاولة تقوية صفات الجندى بأحدث الوسائل العلمية والأدبية ، ورفع الروح المعنوية بغرس الفضائل العسكرية والأفكار الوطنية التى ترتفع بالإنسان فى الجندية إلى أعلى مراتب الولاء ونكران الذات والتضحية .

إن الجندية مهنة الرجال الشجعان .

وما استحق شرف الجندية من تهاون فى أداء واجبه أو فكر فى الحياة مع المذلة .

ولله در جرير إذا قال .

قل للجبان إذا تأخر سرجه   هل أنت من شرك المنية ناجى ؟

إنما الجندية الحقة هى الحياة فى ظل الواجب والشرف ، تلك الحياة التى تمناها الحصين بن همام حين قال :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد   لنفسى حياة غير أن أتقدما

الجيش يقول ..

كانت حملة نابليون على ايطاليا عام ١٧٩٦ تطوى طريقا محفوفا بالمكاره : جبال الألب . . قلة المؤن والدخائر . . نقمة الحكام فى باريس . . ولكن عقل القائد كان ينير الطريق ويبعث الهمة فى النفوس ، فاستطاع نابليون أن يمزق شمل أعدائه فى موقعة مونتنوت ، فنفض أهل سردينيا أيديهم من محالفة النمسويين وتخلوا عن نيس ، سافوى ، ثم اتجه إلى سهل لومبارديا فتراجع بوليو القائد النمسوى المشهور أمام العاصفة ، ودخل نابليون منتوا ثم واصل زحفه إلى فينا ، واضطر النمسويون إلى طلب الهدنة .

وكتب نابليون إلى حكومته فى باريس يقول :

« تلقيت مشروع معاهدتكم مع سردينيا ، لقد وافق عليها الجيش »

ودهش رجال الحكومة من هذا الأسلوب غير المعهود ، إذ لم يسبق لقائد أن واجه حكومته بمثل هذا التصريح الخطير . . وقال خصومه فى باريس — من أجل هذا الخطاب — « يجب أن يقف هذا البطل الصغير أمام جماعة ضرب النار » !

وراح نابليون يعمل بسرعة ، فقد كان يقول : قد أخسر معركة ولكن لن يرانى أحد أخسر بضع دقائق !

وكانت أول معركة كبرى . . لودى .

عملية خداع متقنة وحركه جريئة عصفت بقوات النمسا التى فوجئت بالهجوم . . لقد نال نابليون فيما بعد انتصارات أعظم شأنا ، ولكن انتصاره الرائع هذا فى لودى لم يكن له مثيل فى رفع معنويات الجنود ، ومعنويات نابليون نفسه . . فقد رأى بوضوح طريق مجده .

لقد قررت « لودى » مصير القسم الأول من العمليات ، وأوضحت علامات العبقرية النابليونية فاختلطت الأحلام بالحقائق والخطط المبهمة بالأعمال الباهرة .

« إنى تنبهت — بعد معركة لودى — إلى أننى إنسان ملهم ، ويومها كان بداية تحقيق آمالى فى أن أصنع شيئاً خالدا مما كان يبدو لى فى الماضى كأضغاث أحلام » .

نعم . . كان يدور برأس نابليون غزو قارتين أو ثلاث !

ولكن . . كان يدور برأس الكبار فى باريس : وقف نابليون !

وكانت أول خطوة لذلك إرسال جنرال كارمان . . ليشاطره العمل فى قيادة الحملة !

ورفض نابليون ... وكتب لحكومته إنها تضع العراقيل فى طريقه : وقد يكون الجنرال كارمان قائدا ألمعيا يستطيع أن يأتى بنتيجة فائقة " ولكننا لا نتفق . . سنعمل معا شيئاً رديئا !

. . لا يمكن أن تكون المسئولية مجزأة ، وإننى أستعين بشجاعتى

فى هذه الكلمات ، التى قد تفسر بأنها من صنع الأطماع والكبرياء . . إننى لا أستطيع أن يعمل إلى جانبى قائد يعتبر نفسه أحسن جنرال فى أوربا .

إن قائداً رديئاً أفضل من قائدين عظيمين . .

لقد رفض نابليون ما أرادته حكومته من تعيين قائد معه ، وأرسل إلى باريس رده الحاسم . . لا .

ولم يضيع وقتا ، ففى اليوم التالى تحرك إلى ميلان ، وهناك حيته الجماهير الحاشدة فخطب فيهم قائلا :

« ستكونون أحرارا وفى أمن أكثر من الفرنسيين أنفسهم ، ستكون ميلان عاصمة الجمهورية الجديدة ذات الخمسة ملايين ، وسأختار منكم خمسين رجلا لحكمها باسم فرنسا . . إن أثينا واسبرطة لم يختفيا إلى الأبد » .

نعم ، ومنذ عهد بلوتارك وأبطاله لم يأت قائد كنابليون يقول مثل هذه الكلمات . .

وكان نابليون يرى الجمع بين القيادة العسكرية والسياسية والمالية أثناء الحملة « يجب أن توضع الثقة كلها فى قائد واحد لا يتداخل أحد فى عمله ، إن أمامى أن أفعل كل شىء بجيش جديد ، لابد أن أدفع القوات الجرمانية وأزيل الحصون وأحفظ خطوط المواصلات واستولى على جنوه وفينيسيا وتوسكانى وروما ونابلى ، وأثبت قواتى العسكرية هنا وهناك ، وفى كل مكان . . ولهذا فلا بد من توحيد جميع القوى العسكرية والسياسية والمالية فى يدى » . .

« إذا لم يكن الجنرال هو المركز الرئيسى فإن الجيش يتجه إلى الخذلان » .

* * *

كانت الحكومة فى باريس تحتفل بالنصر ، وتأتمر بالمنتصر .

وكلما حاول نابليون الحصول على إمداد أهملوا طلبه وتداولوا فى طريقة القضاء عليه . . قبل أن يقضى هو عليهم ، فإنه يحرز النصر ويتفق على الهدنة فاذا عاد إلى باريس بطلا تخفق حوله الاعلام والقلوب فإنه سوف يدفعنا بيد واحدة ، ويأخذ السلطة باليد الأخرى .

وكتب إليهم نابليون محذرا ومنذرا :

باسم ثمانية آلاف رجل أحذركم وأقول لكم :

ان الوقت الذى كانت فيه حفنة من المحامين يستطيعون السيطرة على مصائر آلاف الجنود وسوقهم الى المذبحة . . قد انتهى ولن يعود .

نوادر العسكريين

لاغرو أن يبدأ الحديث بنابليون بونا برت أشهر عبقرية عسكرية ، وضع مبادىء الحرب الحديثة وأخرج القانون الذى استوحته الأمم المتحضرة ونشر الثقافة الفرنسية فى كل غزوة .. فكر فى إنشاء الكوميدى فرانسيز وهو يصارع حرائق موسكو ، وصفه « نيتشه » بأنه المثال الأعلى للبطولة وعبر « دوناى » عن أمنية فرنسا بقوله « ليته يعود ! ! » .

ولعل أعظم ما أحبته فرنسا فى نابليون أنه سقاها كئوس النصر والفخر فوهب جنوده أنفسهم له حتى كان اسمه آخر ما ينطقون به وهم يعالجون سكرات الموت ، وفى هذا أنشأ « هيجو » قصة طريفة ذكر فيها أنه ظهرت فى إحدى معارك نابليون هوة تساقط فيها الجنود وحاول أحد إخوانهم إنقاذهم فتدلى بحبل فى هذه الثغرة السحيقة دون أن يسمع لهم صوتا وبعد أن امتد به الحبل مائة متر أو تزيد أخذ يصيح : انتظروا ... إنى أسمع همسا من بعيد ... اسمعهم يهتفون : « يحيا الامبراطور ! » .

وإذا ذكرنا نابليون فلا غرو أيضاً أن نذكر خصمه الكبير ولنجتون .

كان ولنجتون جنديا باسلا ولعله أعظم قائد عرفته بريطانيا ، وقد كان يقف وسط جنوده فى أشد أدوار القتال .. ولما أزفت الساعة الحاسمة فى

معركة « ووترلو » حاول ضباطه أن يبعدوه عن منطقة الخطر ، فصاح فيهم قائلا « ليست لحياتى ضروة بعد اليوم ، فقد ربحت المعركة » .

على أن ولنجتون لم يبلغ ما بلغه نابليون من واسع الشهرة ، ومثل هذا يقال عن « سيبيو » الذى انتصر على « هانيبال» . . . ورب هزيمة أشرف من انتصار !

والشجاعة فى مقدمة الصفات العسكرية ، فمن المتفق عليه أن الخوف شيء لا يعرفه العسكريون ! كانت الممثلة العالمية سارة برنار متطيرة ذات ليلة فتأخر ظهورها على المسرح فصعد إلى غرفتها أحد جنرالات فرنسا وسألها عن الأمر فقالت : « انى خائفة يا سيدى الجنرال» فقال : خائفة . ما معنى هذا ؟ فالتفتت إلى أحد الممثلين وقالت :

« معذرة . . . هات قاموسا للجنرال »

وكان خالد بن الوليد من مشاهير قواد العرب حتى فاز بلقب « سيف الله المسلول » وهذا المحارب الفذ الذى قد جنوده من نصر إلى نصر ، ومضى براية الإسلام من قطر إلى قطر ضرب المثل الأعلى للجندى فى إطاعة الأمر فقد عزله الخليفة عمر بن الخطاب وولى عليه أبا عبيدة .. فصدع بالأمر فى الحال ! .

وعندما حضرته المنية قال قولته المشهورة على فراش الموت : لقد شهدت مائة وقعة أو تزيد وما ببدنى موضع شبر إلا وفيه أثر طعنة ، وهأنذا أموت على فراشى كما يموت العير . . فلا نامت أعين الجبناء ! .

وكان المتنبى يصف وقائع سيف الدولة ويشيد بجيشه اللجب ولست

أدرى أى شعر كان يقوله المتنبى فى جيوش ستالينجراد أو العلمين إذا كان قد قال فى جيش أعداء سيف الدولة :

خميس بشرق الأرض و غرب زحفه
وفى إذن الجوزاء منه زمازم

تجمع فيه كل لسن وأمة
فما تفهم الحداث الا التراجم

وترى ماذا كان يقول فى فون باولوس وزوكوف وايزانهاور إذا قال فى سيف الدولة :

نهبت من الأعمار ما لو حويته
لهنئت الدنيا بأنك خالد

حرب الورق

إن العدو لا يغمر خطوطنا بقذائف
النيران وحدها ولكنه يغمرها أيضاً
بقذائف أخرى من الورق .. إن هدف
العدو الرئيسى هو أن يسمم أفكارنا
ويحكم روحنا .

مارشال هندنبرج

حرب الورق

بين أسلحة الحرب الحديثة سلاح عجيب يهز الجيوش ويهزم الشعوب دون أن يحدث جلبة أو يسيل دما سلاح من الورق تتطاير به الكلمات والصور إلى خنادق العدو وإلى داخليـــة بلاده فيحدث فيها اضطرابا ويثير فزعا قد ينتهى بهزيمة عاجلة قبل هزيمة الجيوش ، أوانهيار عام قبل أن يكون استسلام .

هذا السلاح العجيب هو الوريقات الصغيرة التى تتطاير فى الهواء والنشرات والخطابات ، والصحف والكتب ، وكل شيء يحمل إلى العدو خبرا فظيعا أو سرا مروعا .

والهدف الرئيسى لهذا السلاح هو حمل الأنباء المعكرة وللعلومات المثيرة إلى جنود العدو فتتأثر روحهم للعنوية ، كما ترسل إلى المدنيين خلف خطوط القتال فتفتر حماستهم وتضطرب أفكارهم ويحل بنفوسهم الوهن والتخاذل .

إن الحرب على الورق ليست حربا سهلة ، فهى تحتاج إلى تنظيمات وخطط وفنون . . وقليلون يعلمون أسرارها وصعوباتها وأخطارها ، وقد رأينا كيف أن الحروب الأخيرة دلت على خطر الدعاية ، وكيف عصفت بأحلام الجنود وأوهنت عزائم الشعوب ، وهى التى هزمت ألمانيا

فى الحرب العظمى قبل أن تفتر عزيمة الجيش وجعلت الأمة تسلم قبل أن تنهزم قواتها الباسلة .

الألمان كانوا البادئين !

وقد كان الألمان أول من استحدث استخدام الصحافة الحربية للدعاية ومهاجمة الروح المعنوية لدى الأعداء وكانت أول حملة صحفية معادية يوم ٣٠ من أغسطس سنة ١٩١٤ حيث ألقى الطيار الألمانى « هرس » ثلاث قنابل على باريس تطايرت منها وريقات جاء فيها :

(الجيش الألمانى على أبواب باريس ... لا مفر من التسليم) .

هكذا بدا الألمان تثبيط العزائم ، وإيهان القوى ، وتحطيم الروح المعنوية ، ثم أتبعوا الدفعة الأولى بالقاء المنشورات على الأماكن المهمة فى باريس والمدن الكبرى ، فهبطت فى ساحة الأوبرا والأسواق العامة والميادين الرئيسية مثلما نزلت غيرها فى الخنادق وساحات القتال ، وألقى رجال سلاح الطيران الألمانى القصاصة المشهورة :

(أيها الجنود الفرنسيون : سلموا) :

وأصدر الألمان عدة صحف للدعاية فكانت المطابع تنتقل مع رياسة القوات وتدور بلا انقطاع تحت إشراف القيادة العليا ، فكانت ثمة حرب ذريعة على الروح المعنوية استخدمت فيها الطائرات والبالونات ، وقابل الحلفاء دعاية الألمان بمثلها بل تفوقوا عليهم فيها . وهكذا اخترعت الأوراق مع الأسلحة والقنابل وأخذ الميزان يميل مع هذا الفريق مرة ومع الفريق الآخر مرة حتى رجحت كفة الحلفاء فى المعركة كلها ، وكان انتصار الدعاية مقدمة للنصر النهائى الكامل .

رد الفرنسيين .

وقد فطن الفرنسيون إلى أثر الدعاية الألمانية وخطرها فعاجلوها بالرد عليها فى ابتكار وسائل جديدة فأنشأوا ادارة خاصة أطلق عليها « ادارة الدعاية الحربية » وكان هدفها الأول أن تمحو الأثر الذى أحدثته الدعاية الالمانية عدة شهور فى نفوس العسكريين والمدنيين وأتبعوا ذلك بحملة كبيرة لرد الاعتداء الصحفى الذى نالهم من الألمان وشنوا حربا ورقية استخدموا فيها الكتب والصحف والنشرات فألقيت آلاف منها بالباراشوت على الخطوط الألمانية ، ومن أهم المصادر التى استخدمت فى الدعاية كتاب صغير عنوانه « إنى أتهم » كتبه الألمانى « ريتشارد جرانج » اثناء إقامته فى سويسرا وفيه اتهام خطير للذين تسببوا فى الحرب وقادوا المانيا إلى الهاوية ، فطبعت منه ادارة الدعاية الفرنسيه آلاف النسخ الصغيرة ، وألقتها الطائرات الفرنسية على خطوط الألمان كذلك ألقيت منشورات بعنوان « الأكذوبة الكبرى » ترد فيها على الدعاية الألمانية بما هو أشد منها .

ومن النشرات الشهيرة « الخطاب المفتوح » الذى نشره أسير المانى موجها إلى زملائه الألمان الذين دفعوا إلى الحرب ! وهو مكتوب بالألمانية فنشرته الجريدة السويسرية التى كانت تصدر فى بلجيكا بعنوان « بلجيكا الحرة » وكان هذا الخطاب صريحا ومنطقيا فأحدث أثرا بعيدا فى نفوس قارئيه .

الدعاية البريطانية .

ان إنجلترا التى اشتهرت من قديم الزمان بانها قادرة على بث الدسائس وتحريك الثورات ، والتى أقر رجالها بأنهم يستطيعون خلق الفتن كلما شاءوا . أدركت انجلترا أن التغلب على المانيا بالسيف يستحيل وأنه لابد من إيجاد ثورة داخلية لهدم دعاة الامبراطورية الألمانية بما فى ذلك ركنها الركين : الجيش الألمانى .

وقد نظم الانجليز مصلحة خاصة واسعة النطاق ، يرأسها لورد بيفربرك ، ويديرها نورثكليف وكيلنج ورذمير ، وأخذوا ينشرون آراءهم الوهمية عن الصلح وحكم الشعوب لأنفسها وتحرير الأمم الضعيفة وإحكام روابط الاخاء بين أمم العالم ، وينعون على العسكرية البروسية حيويتها ورغبتها فى التسلط على العالم وحبها الأشعبي للاستعمار ، واستبدادها وعنجهيتها !

قال بسمارك : ان مهنة بريطانيا التى احترفتها منذ أعوام طوال هى استخدام الثورة ضد الدول الاجنبية المعادية .

٢٨ مليون نشرة .

واستقبلت الخنادق الالمانية والمناطق المحتلة سيلا لاينقطع من النشرات حتى بلغ عدد النشرات ٣٠٠ ألف شهريا ، وبلغ عددها فى خلال تسعة وثلاثين شهراً ٢٨ مليون نشرة .

وقد أحس القواد الالمان بخطر دعاية الحلفاء على حالة الجنود المعنوية وفى نفسية الشعب ، فبذلوا جهودا جبارة لايقاف هذا السيل ودرء الخطر ،

فلم يستطيعوا الى ذلك سبيلا ، وفى هذا يقول لودندورف : رأيت أن أتلافى الدعوة الضارة بنا فى الصحف ، فرجوت المستشار أن ينشىء تحت إشرافه إدارة ترسم لصحفنا الخطة المثلى . . إن عدم حنكتنا السياسية هى التى أوقعتنا فى أشواك الألفاظ الجوفاء التى تسىء إلى العقول » !

أقوى من الجوع .

ولعل أبلغ دليل على قوة الدعاية وأثرها الخطير على الجيش الالمانى والشعب أن قواد ألمانيا شعروا بأن النصر قد تسرب من أيديهم وأن لا طاقة لهم على منع الألمان من التأثر بدعاية الحلفاء ، فكان هذا تسليما بالهزيمة المعنوية وفى ذلك صرح المارشال هندنبرج بقوله :

« لقد شن العدو حربا ضد الأفكار الألمانية ، ووضع الخطط لتسميم رءوسنا ونفوسنا بهذه الحملة التى دبرها بعناية فائقة وأساليب مبتكرة » .

وقال الجنرال لودندورف :

« إن الذى أصيب به الشعب الألمانى أكثر من أزمة الجوع والضعف هو سلاح الدعاية » لقد كان الأعداء الذين عجزوا عن مقاتلتنا بالسيف يعملون على إضعاف ثقتنا بنفوسنا وقهر روحنا المعنوية .

فهرس

لجنة
اخترنا للجندى

العميد: سيد عبد الحميد مرسى

العقيد أ.ح: عبد الغنى فرحات

مقرر اللجنة: محمد عطا

المقدم أ.ح: محمود طنطاوى

أسماء وأرقام الكتب التي صدرت من سلسلة

اخترنا للجندى

مسلسل	العــدد	اسم الكتاب
١	الأول	الجندية فى ظل الميثاق
٢	الثانى	مكاسب الجندى الاشتراكية
٣	الثالث	خواطر عن الحرب
٤	الرابع	جيشنا الوطنى بين الماضى والحاضر
٥	الخامس	خالد بن الوليد
٦	السادس	لمــاذا يحاربوننا
٧	السابع	الابرة والصاروخ
٨	الثامن	الدور الخطير
٩	التاسع	فتح مكة
١٠	العاشر	إسرائيل وكيف خلقها الاستعمار
١١	الحادى عشر	لماذا أنت جندى ؟
١٢	الثانى »	الثائر العربي (عبد الرحمن الكواكبي)
١٣	الثالث »	قناتنا عادت إلينا
١٤	الرابع »	فداء . . قصص قصيرة
١٥	الخامس »	أحاديث فى الحرب
١٦	السادس »	انتصار ثورة اليمن

مسلسل	العــــدد	اسم الكتاب
١٧	السابع عشر	النهاردة حاجة ثانية
١٨	الثامن »	قواتنا المسلحة : القوة الأولى فى الشرق الأوسط
١٩	التاسع »	أحاديث الجهاد والفروسية
٢٠	العشرون	رسالة الاتحاد الاشتراكى العربى
٢١	الواحدوالعشرون	لنا . . ولمن حولنا
٢٢	الثانى »	غزوة بدر من امجادنا العربية
٢٣	الثالث »	الثورة الاجتماعية والميثاق
٢٤	الرابع »	دروس المقاومة فى غزوة الأحزاب
٢٥	الخامس »	هؤلاء أعداؤك
٢٦	السادس »	دمياط وكفاحها ضد الاستعمار
٢٧	السابع »	الأرض
٢٨	الثامن »	لماذا أنا جندى
٢٩	التاسع »	من روائع التاريخ العسكرى العربى
٣٠	الثلاثون	بطولات طائرة
٣١	الواحد والثلاثون	كلهم أبطال (قصص من الحرب)
٣٢	الثانى »	معركة النضال
٣٣	الثالث »	وحدتنا العربية
٣٤	الرابع »	الجمهورية العربية المتحدة فى المجال الدولى
٣٥	الخامس »	صفحات من بطولة الجيش العربى
٣٦	السادس »	عودة الأبطال من اليمن

مسلسل	العـــدد	اسم الكتاب
٣٧	السابع والثلاثون	صور قومية .
٣٨	الثامن »	من بيت الطين إلى المعمل الذرى .
٣٩	التاسع »	من أجل السلام
٤٠	الأربعون	أفريقية فى طريق الوحدة
٤١	الحادى والاربعون	مذكرات جندى عجوز
٤٢	الثانى »	وطننا الكبير
٤٣	الثالث »	صهيونية تدق
٤٤	الرابع »	أبواب أفريقيا
٤٥	الخامس »	إقامة جيش وطنى كبير
٤٦	السادس »	
٤٧	السابع »	
٤٨	الثامن »	
٤٩	التاسع »	
٥٠	الخمسون	
٥١	الحادى والخمسون	
٥٢	الثانى »	
٥٣	الثالث »	
٥٤	الرابع »	
٥٥	الخامس »	
٥٦	السادس »	

مطابع الدار القومية للطباعة والنشر